الرقة

من خلال التاريخ وكتب الرحالة

م . ابو الفرج العش

مقال نشر في المجلد السابع من مجلة الحوليات الأثرية

لعام ١٩٥٧ الصفحة ٥٣ - ٧٢

الرقة
من خلال التاريخ وكتب الرحالة

م . أبو الفرج العش

لمحة جغرافية وطبقية : تقع منطقة الرقة على شاطىء الفرات الشمالي في السهل المحصور بين الفرات ورافده نهر البليخ من منطقة الجزيرة الواسعة الغنية . وهي ذات تربة خصبة سهلة الإرواء (كانت تشرب [1] من البليخ) لها اقليم [2] مقبول : يهب عليها نسيم النهر فيعدل من حرارتها صيفا . وتستقبل المدينة جهة الجنوب حيث شريان حياتها ومركز اهتمامها ألا وهو الفرات فتتعرض لأشعة الشمس الدافئة ويكون لها شتاء لطيف .

تتمتع الرقة بموقع جغرافي ممتاز ، فهي في نقطة متوسطة من الفرات ، وموضع تقاطع [3]

---

(١) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٨٠٣ طبعة ليدن .

(٢) يضعها الجغرافيون العرب في الاقليم الرابع بطول ٦٣° أو ٦٤° وعرض ٣٦° ؛ (تقويم البلدان لأبي الفداء ص ٥١ ، مروج الذهب للمسعودي ج I ص ١٩٠ ، أحسن التقاسيم للمقدسي ص ٦٠) .

(٣) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٨١ — ٨٤ .
تاريخ الرسل والملوك للطبري ج ١ ص ٣٢٥٩ .
مروج الذهب للمسعودي ص ٣٤٤ .

الطرق المتجهة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ؟ ولقد أهّلها هذا الموقع لتكون محطة تجارية هامة . تمتد في أطرافها الاراضي الخصبة والمراعي إلى مسافات شاسعة فكانت الرقة لهذا السبب مركزاً لتجميع الحاصلات وتبادل السلع ومصدر (١) المؤن إلى كثير من البلاد . وإذا اضفنا إلى هذه المزايا أهمية الموقع الستراتيجي ، فإنا نستطيع أن نقدّر أهمية هذه المنطقة كمركز لتجمع البشر والثروات وموطن لتقدم الحضارة على مرّ الزمن .

لقد سكن البشر هذه المنطقة منذ العصور الحجرية القديمة ، وتراكمت آثار الإنسان بعضها فوق بعض . وقد أعطانا خبير مديرية الآثار العامة الاستاذ (٢) دونان مجملاً لهذه الطبقات نذكره فيما يلي :

١ – العصر الحجري القديم (يعود إلى ماقبل ٦٠٠٠ سنة ق . م) آثاره موجودة في السهل .

٢ – العصر الحجري الحديث (٦٠٠٠ – ٣٠٠٠ ق . م) آثاره موجودة في تل زيدان (٣) على الطرف الأيسر من البليخ .

٣ – عصر البرونز (٣٠٠٠ – ٢٠٠٠ ق . م) آثاره موجودة في تل البيعة على بعد ٢ كم من البليخ في الضفة اليمنى قرب مدينة الرشيد .

٤ – المدينة الهلينية (٣٠٠ ق . م حتى نهاية القرن الأول ق . م) وقد بناها سلوقس (٤) الأول وأسماها نيكيفوريوم Nikephorium ، وهي تحت انقاض العهدين الروماني والبزنطي .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٢٧٢ : ذكر الخليفة المنصور أهمية الرقة كمصدر للمؤن عندما انتوى بناء بغداد . – (المصدر نفسه) ج ٣ ص ١٦٠٤ عندما اشتد الضيق على سكان الجنوب أيام المستعين سنة ٢٥١ هـ وافتهم سفن من الرقة فيها دقيق وأطواف فيها زيت وغير ذلك . . . .

(٢) للأستاذ دونان في أضابير مديرية الآثار العامة تقرير مؤرخ في ١٩ و ٢٠ كانون الأول ١٩٥٤ .

(٣) يذكر الأستاذ هرتزفلد أن في هذا التل المدينة القديمة Zeodotion (L'Encyclopédie de l'Islam V. III)

(٤) ذكر الأستاذ سوفاجه في مجلة Ars Islamica XIII - XIV P. 31 أن بانيها الاسكندر الكبير لكن الاستاذ هوليفان كاتب بحث الرقة في الموسوعة الاسلامية ج III ص ١١٨٥ يستبعد مجيء الاسكندر إلى هذه النقطة .

٥ – المدينة الرومانية [١] (القرن الأول – الثالث ب . م .) وهي تقع إلى شرقي باب بغداد القائم حالياً في الرقة .

٦ – المدينة البزنطية (القرن الثالث – السابع ب . م .) واسمها كالينيكيوم [١] ، ثم أطلق عليها ليونتوبوليس [٢] Leontopolis وهي تقع إلى شرقي باب بغداد .

٧ – مدينة الرافقة [٣] التي بناها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور سنة ١٥٥ هـ = ٧٧٢ م

٨ – مدينة الرشيد [٤] : وهي توسع الرافقة نحو الشرق والشمال في القرنين الثاني والثالث الهجريين = الثامن والتاسع الميلاديين .

مدينة الرقة : لقد كان الهلال الخصيب ولا يزال مدى حيوياً لتوسع الاقوام السامية العربية التي تقطن الجزيرة العربية منذ العصور التاريخية السحيقة ، وكانت هذه الاقوام تقوم احياناً بغارات واسعة مفاجئة نحو الشمال – على أثر كارثة طارئة أو قحط شامل – ، وأحياناً تنساب بهدوء وتستقر على هوامش المناطق الخصبة ، ثم تتغلغل بها . ولقد كان من هـذه الهجرات الواسعة الأكاديون والآشوريون ثم العموريون والكنعانيون والفينيقيون والأراميون ثم نزح العرب الأنباط الذين استقروا في الجناح الغربي من الهلال الخصيب وذلك في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد ، ثم أشرف التدمريون على بادية الشام واتخذوا لأنفسهم في قلبها تدمر عاصمة لهم ، ووصل نفوذهم إلى الفرات الأوسط موالين الدولة الرومانية أحياناً ومتمردين عليها أحياناً أخرى

---

(١) لم يسمّ الاستاذ دونان هذه المدينة بينا يعطيها الاستاذ كرزويل الاسم كالينيكيوم التي نسبها إلى الامبراطور غالينوس المتوفى سنة ٢٦٨ ب . م . Early Muslim Architecture III P. 39 . إن الاستاذ دونان يرجح أن تكون المدينة بيزنطية ؛ بينا الاستاذ هونيغمان (كاتب البحث في الموسوعة الاسلامية) يعتبرها هيلينية أيضاً إذ ينسبها إلى سلوقس الثاني كالينيكوس الذي أسس المدينة سنة ٢٤٤ أو ٢٤٢ ق . م . ويأتي الاستاذ هونيغمان برأي آخر اعتماداً على الكاتب Libanios بنسبة المدينة إلى صوفي البتراء الوثني المسمي كالينيكوس ثم يستبعد الاستاذ هونيغمان هذا الرأي . أما الرأي النهائي فهو متعلق على أعمال الحفر في المستقبل فهو الذي يحدّد العصر بدقة] .

(٢) نسبها الاستاذ كرزويل في المرجع المذكور آنفاً إلى الامبراطور ليون الثاني الذي حكم الشرق في ٤٧٣ – ٤٧٤ ب . م . ويعيّن الاستاذ هونيغمان السنة التي بنيت بها المدينة وهي سنة ٤٦٦ ب . م .

(٣) كان الأفضل أن يضيف الاستاذ دونان إلى هذه الطبقة مدينة الرقة التي سبقت الرافقة مدة قرنين تقريباً ثم عاشت معها قرنين أو أكثر .

(٤) هذه التسمية حديثة ، ويعني بها الخبير توسع الرافقه خارج السور نحو الشرق والشمال أيام الرشيد وخلفائه وهذه هي التي اسماها ياقوت الحموي الرقة الوسطى : معجم البلدان ح II ص ٨٠٢ .

لقد استقر العرب العُمانيون (وأصلهم من اليمن) في الجناح الشرقي للهلال الخصيب منذ القرن الثاني بعد الميلاد وسكنوا وادي الفرات الادنى ، وصار لهم دولة تحت إشراف الساسانيين عرفت بدولة اللخميين ثم عرفت بدولة المناذرة . وقد أرادت كل من الدولة الساسانية والرومانية استغلال هاتين الدولتين المواليتين للتحرش والانتقام وأحياناً للاستيلاء على أراض جديدة . وعندما انتهى أمر التدمريين نشأت دولة الغساسنة اليمنيين وقد لعبوا الدور (الذي كانت تلعبه الدولة التدمرية) في ظل الدولة البزنطية . وبقيت هذه الدولة حتى الفتح العربي الاسلامي ، لكن دولة المناذرة انتهى أجلها قبل الفتح العربي وحكم الفرس وادي الفرات حكماً مباشراً .

لقد كانت منطقة الرقة ديار مضر وهم من عرب الشمال : وقد انتقل حكم هذه المنطقة من أيدي الفرس لأيدي الروم البزنطيين عدة مرات ، واستقرت بأيدي الروم بعد انتصارهم على الفرس أخيراً قبيل ظهور الإسلام . وقد كان أهل هـذه المنطقة وأكثر مدن الجزيرة من العرب الذين قبل أكثرهم الدين المسيحي ، واستقروا في هذا السهل ، وأطلقوا على مدينتهم اسم (الرقة) وكلمة الرقة (بفتح الراء وتشديد القاف) لغةً تعني : كل [1] أرض إلى جانب واد ينبسط الماء عليها ايام المد ثم ينضب ، أي أن التسمية كانت مطابقة للمسمى .

لقد اختلف المؤرخون في تعيين تاريخ فتح العرب المسلمين مدينة الرقة بين سنة ١٧ هـ و ١٨ هـ ، واكثر من مال الى أن الفتح تمّ في سنة ١٨ هـ اعتمد على الواقدي صاحب فتوح الشام ومنهم البلاذري ومن أخذ عنه ، إلا أن الطبري [2] وياقوت الحموي يؤكدان أن الفتح تمّ سنة ١٧ هـ ويبين الطبري السبب المباشر لفتح الرقة وهو أنّ أهل الجزيرة المسيحيين استثاروا الروم على أهل حمص بعد أن فتحها أبو عبيدة الجراح ، فتجمع الروم لاستعادتها من المسلمين وتحرّج الموقف على ابن الجراح فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب بالأمر . فكتب عمر إلى والي الكوفة سعد بن مالك [3] (كذا) يقول له : « سرّح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند . وليأت

(هو سعد بن أبي وقاص نفسه)

(١) القاموس المحيط للفيروزدباي ح ٣ ص ٢٣٧ .
معجم البلدان لياقوت ح II ص ٨٠٢ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ج I ص ٢٥٠٠ — ٢٥٠٦ .
ياقوت ج II ص ٨٠٢ .

(٣) هناك رواية ثانية في الطبري تقول إن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص . وهذه الرواية تنطبق مع ما جاء في معجم البلدان ج II ص ٨٠٢ ومع جميع الكتب التاريخية .

الرقة ... » « ... وسرّح عياضاً (يقصد عياض بن غنم) ، فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم » . وجهز عمر بن الخطاب جيشاً قاده بنفسه واتجه نحو الشام حتى وصل الجابية . وقد اراد الخليفة بهذين العملين أن يقعّد أولاً عرب الشمال النصارى عن مؤازرة الروم لاستخلاص حمص ثم أتى بنفسه لنجدة أبي عبيدة . وقد نجحت الخطة .

انتهى سهيل بن عديّ إلى الرقة وقد ارفضّ أهل الجزيرة عن حمص إلى كورهم حين سمعوا بمُقْبَل أهل الكوفة فنزل عليهم ، فاقام محاصرهم حتى صالحوه ، وذلك أنهم قالوا فيما بينهم : « أنتم بين أهل العراق وأهل الشام ، فما بقاؤكم على حرب هـؤلاء وهؤلاء » فبعثوا بذلك إلى عياض وهو في منزل واسط من الجزيرة . فرأى أن يقبل منهم فبايعوه وقبل منهم .

هذه هي الرواية التي يرجحها الطبري ، إلا أنه – كعادته – أورد رواية أخرى فقال : « وزعم[1] الواقدي أن الرقة والرُّها وحران فتحت في هذه السنة (يعني سنة ١٨ هـ) على يدي عياض بن غنم ... » .

أما البلاذري[2] فقد ذكر أخذاً عن الواقدي : « ... سار عياض إلى الجزيرة سنة ١٨ هـ ؛ انتهت طليعة عياض إلى الرقة فأغاروا على حاضر كان حولها للعرب وعلى قوم الفلاحين ، فأصابوا مغنماً ، وهرب من نجا من أولئك فدخلوا مدينة الرقة . وأقبل عياض في عسكره حتى نزل باب الرُّها (وهو أحد أبوابها) في تعبئة . فرمى المسلمون ساعة حتى جرح بعضهم ، ثم إنه تأخر عنهم لئلا تبلغه حجارتهم وسهامهم . وركب فطاف حول المدينة ، ووضع على أبوابها روابط ، ثم رجع إلى عسكره ، وبث السرايا فجعلوا يأتون بالأسرى من القرى وبالأطعمة الكثيرة . وكانت الزروع مستحصدة . فلما مضت خمسة أيام أو ستة وهم على ذلك أرسل بطريق المدينة إلى عياض يطلب الأمان . فصالحه عياض على أن أمّن جميع أهلها على أنفسهم وذراريهم وأموالهم ومدينتهم . وقال عياض : الأرض لنا قد وطئناها ، وأحرزناها ، فأقرّها في أيديهم على الخراج ودفع منها ما لم يرده أهل الذمة ؛ فرفضوه إلى المسلمين على العُشر ووضع الجزية على رقابهم : فألزم (عياض) كل رجل منهم ديناراً في كل سنة ، وأخرج النساء والصبيان ، ووظّف عليهم مع الدينار أقفزة من قمح وشيئاً من زيت وخل وعسل .

---

(١) الطبري ج I ص ٢٥٧٨ .

(٢) فتوح البلدان – البلاذري ص ١٧٧ – ١٧٨ المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٥٠ هـ = ١٩٣٢ م .

(فلما ولي معاوية جعل ذلك جزية عليهم) . ثم إنهم فتحوا أبواب المدينة وأقاموا للمسلمين سوقاً على باب الوها .

فكتب لهم عياض عهداً : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عياض بن غنم أهل الرقة يوم دخلها : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم لا تخرب ولا تسكن ، إذا أعطوا الجزية التي عليهم ، ولم يحدثوا مَغيلة ، وعلى أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ، ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً [1] ولا صليباً . شهد الله - وكفى بالله شهيداً - وختم عياض بخاتمه » .

ونستنتج من هذه النصوص أن الرقة العربية القديمة كانت ذات سور وأبواب ، وكانت ذات غلات متنوعة حسنة ، وكان لها سوق هامة ؛ وكان أهلها مسيحيين . ولم يؤذها العرب عندما فتحوها بل أبقوا أراضيها في أيدي أهلها ورتبوا عليهم فقط تكاليف الأمن والسلام .

استمرت الرقة في ظل الحكم الإسلامي تتمتع بحرية الاعتقاد ، وتستفيد من موقعها الجغرافي ومن ثروتها الزراعية ومن أهميتها التجارية كسوق بين الجزيرة والشام . وقد دخل إليها الاصلاح [2] العمراني سنة ٢٠ هـ في عهد واليها الثاني وهو سعيد بن عامر بن [3] حِذْيَم فبنى بها جامعاً من الآجر واستعمل في بنائه أنقاض الرخام [4] القديم : ولا زالت آثار مأذنة المنبطر في خرائب الرقة القديمة شاهداً على المدينة المندثرة الواقعة شرقي الرافقة (ضاعت معالمها الظاهرة منذ عشرين عاماً) والتي نرجح أن تكون الرقة البيضاء المذكورة في الكتب التاريخية والجغرافية القديمة . ويعين المقدسي [5] جامعها في محلة البزّازين ويقول إنه كان فيه شجرتا عنّاب وشجرة توت ، وبالقرب مسجد معلق على عمود . لقد انفرد المقدسي بذكر هذا المسجد المعلق ويبدو أنه هو دير العواميد الذي

---

(١) الباعوث : هو صلاة ثاني يوم من عيد الفصح ، والصلاة في طلب المطر وهي كلمة سريانية الأصل (المنجد) . ويقصد بهذه الكلمة في النص الاحتفال الديني الجهري .

(٢) البلاذري ص ١٨٢ .

(٣) حِذيم ذكرها الاستاذ هونيغمان خطأً جِذْيَم (بالجيم) .

(٤) لدينا ما يؤيد هذا الخبر فقد حصلنا في المتحف الوطني على تيجان أعمدة نظن أنها من العهد البزنطي لكن أحدها لا نشك أنه بزنطي وقد كان على وجهيه صليب ، نحت البنّاء الذي استعمله الذؤابة العليا من الصليب ، فغدا وكأنه وردة تزيينية .[اللوح ٩]

(٥) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ١٤١ .

ذكره الأستاذ هونيغمان نقلاً عن[١] ميكائيل السوري وذكر أنه احترق سنة ١٩٧ هـ أثناء ثورة عمرو ونصر بن شبث أيام المأمون .

لقد ورد ذكر الرقة في السنة ٣٦ هـ[٢] عندما أراد علي بن أبي طالب أن يجتاز الفرات من الجزيرة إلى ضفاف الشام لمحاربة معاوية بن أبي سفيان ، انتهى إلى الرقة ومرّ منها جيشه على جسر نصب على السفن بعد تمنّع من أهل الرقة . وورد ذكرها في مناسبات شتى في كتب التاريخ والأدب في العصر الأموي ، وقد كانت دائماً مشهورة كمحطة هامة وسوق غنية تتموّن منها الجيوش : ففي سنة مئة[٣] هجرية في عهد عمر بن عبد العزيز ، تموّن جيش مسلمة بن عبد الملك من الرقة لمحاربة الخوارج الحرورية في العراق . وفي عهد هشام بن عبد الملك كانت له محطة يستريح بها أثناء سفره إلى الرصافة وقد بنى مقابلها على الضفة الغربية قصرين نشأت حولها واسط[٤] الرقة وكانت ترتوي من[٥] قناتين اسمها الهني والمري حفرهما هشام وهما تستقيان من الفرات ثم تصبان فيه . ويذكر الاستاذ[٦] هونيغمان في الموسوعة أن هشاماً بنى جسراً على الفرات عند واسط الرقة . ومن الغريب حقاً ألاّ يرد ذكر جسر الرقة في المراجع العربية لا من عهد هشام ولا من عهود سواه ، ويبدو أن الأستاذ المذكور اعتمد على ميكائيل السوري أو ديونيسيّوس تل محرى . يبدو أن جسراً على الفرات كان موجوداً شمالي الرقة على بعد نحو ثمانية كيلومترات حيث تظهر في مجرى نهر الفرات ركيزة ضخمة مرصصة ، يظن أنها كانت إحدى ركائز الجسر القديم .

وهنا نحب أن نعلم قبل أن ننتقل الى العصر العباسي : أ كانت الرقة في العصر الأموي بلدة واحدة

---

(١) Michael, Syr. III, 26

(٢) الطبري ج I ص ٣٢٥٩ ؛ المسعودي ج VII ص ٣٤٤ .

(٣) الطبري ج II ص ١٣٤٨ .

(٤) البلاذري ص ١٤٥ .

(٥) ياقوت ج IV ص ٩٩٤ .

(٦) الموسوعة III ١١٨٦ .

أم كانت عدة بلدان متقاربة : يذكر ياقوت[١] - بعد الكلام عن درجة طول الرقة وعرضها اعتماداً على بطليموس - الرقة البيضاء (وهي الرقة القديمة تقع شرقي الرافقة على بعد ٢ كم تقريباً) والرقة الوسطى (وهي توسع الرافقة في عهد الرشيد) ثم يذكر رقة واسط (كذا) التي اسماها البلاذري كما شرحنا سابقاً واسط الرقة ويعين مكانها في الضفة المقابلة ، ثم يقول : « وأسفل من الرقة بفرسخ الرقة السوداء وهي قرية كبيرة ذات بساتين كثيرة وشربها من البليخ ، والجميع متصل . » فإذا استثنينا الرقة الوسطى التي هي من العهد العباسي كان لنا أن نفهم من بيت الشاعر الأموي عبيد الله بن قيس الرقيات المتوفى سنة ٨٥ هـ[٢] الذي ذكره في قصيدة وجهها إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وهو :

. . . ذكرتك إن فاض الفرات بأرضنا وجاش بأعلى الرقتين بحارها . . .

نقول : كان لنا أن نفهم أن في الضفة الشرقية رقتين منذ العهد الأموي ويجوز أن تكون الرقة السوداء إحداهما أو أن يكون هناك بلدة أخرى إذا رجحنا أن تكون السوداء هي المحترقة كما سيأتي بيانه .

الرافقة :

تنبه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور إلى أهمية موقع الرقة من الناحيتين العسكرية والاقتصادية فمن الناحية العسكرية كانت قريبة من التخوم الشمالية حيث يجثم الخطر البزنطي يتربص بالعرب المسلمين . وكان موقعها في الضفة الشرقية وإمكان نصب جسر منها إلى الضفة الغربية يجعل منها مركزاً حصيناً صالحاً للدفاع والهجوم بآن واحد . وأما من الناحية الاقتصادية فلا ريب أن الرقة في العهد العباسي قد تقدمت تقدماً محسوساً من الناحية الزراعية والناحية التجارية بسبب انتقال مركز ثقل الدولة إلى العراق وأصبحت الرقة هي النافذة التي تطل منها خيرات الجزيرة وبلاد الشام على أسواق العراق ، تتجمع الحاصلات المتنوعة فيها وتنساب إلى العراق عن طريقي النهر والبر . ولم تخف هذه الأهمية على الخليفة المنصور حينما أراد أن ينتقي مكان بغداد عاصمة جديدة لدولته فقد قال[٣] : « هذا موضع معسكر صالح : هذه دجلة ليس بيننا وبين

(١) ياقوت ح II ص ٨٠٢ — ٨٠٣ .
(٢) الأعلام للزركلي .
(٣) الطبري ح III ص ٢٧٢ .

الصين شيء ، يأتينا فيها كل ما في البحر؛ وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك. وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك ».

عمّر المنصور بغداد مدينة السلام ولم يقصر همه على بناء عاصمته فحسب ، بل أراد أن يشمل العمران جميع النقط الحساسة فكانت الرقة أحد هذه المواضع الهامة وصمم في سنة ١٥٤ هـ على بناء مدينة الرافقة في جوار مدينة الرقة القديمة ونفذ تصميمه ببنائها سنة ١٥٥ هـ[١] وأرسل لهذه الغاية ابنه المهدي[٢] فشخص إليها فبناها على بناء مدينته ببغداد في أبوابها وفصولها ورحابها وشوارعها ، وخندقها ثم انصرف إلى مدينته.

وقبل أن نبدأ بوصف الرافقة نحب أن نذكر السبب الذي اورده بعض المؤرخين كابن الفقيه[٣] معللين به إنشاء هذه المدينة وهو أن الجيش الخراساني أصبح خطراً على أبي جعفر المنصور في بغداد لأن الخراسانيين ميالون إلى الاسرة العلوية. وفي الواقع فإن المنصور بعد بناء المدينة أقرّ فيها الجيش[٤] الخراساني.

لقد بنيت المدينة الجديدة على بعد ٣٠٠[٥] ذراع شمالي غربي[٦] الرقة القديمة ، وكان حدّها المستقيم الجنوبي ملامساً للفرات واليوم أصبح على بعد[٧] الكم تقريباً. لقد كان قصد أبي جعفر أن يبني المدينة على شكل مدينة بغداد أي أن يكون سورها مستديراً لكن طبيعة الموقع

---

(١) البلاذري ص ١٨٤ .

(٢) الطبري ج III ص ٢٧٣ .

الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٢ .

ياقوت ج II ص ٧٣٤ .

البدء والتاريخ للمقدسي ج ٦ ص ٩١ .

(٣) ابن الفقيه طبعة بريل تحقيق دوغويه ج V ص ١٣٢ .

(٤) ياقوت الحموي ج II ص ٧٣٤ ؛ البلاذري ص ١٨٤ طبعة الأزهر ١٩٣٢ .

(٥) » » » »

(٦) حسب ما ذكر هرتزفلد في تعيين موقع الرقة القديمة بالنسبة إلى الرافقة (الموسوعة الاسلامية ج III ص ١١٨٧) .

(٧) كرزويل ج II ص ٣٩ (بسبب تراكم الطمي وتغير الفرات مجراه ضمن واديه الضعيف التربة) .

فرضت على البنائين (١) أن يجعلوا السور على شكل نعل الفرس ، ولكن ضلعه الشرقي أطول من ضلعه الغربي . ولما كان الموضع سهلاً ليس فيه وقاء طبيعي فقد جُعل لها سور مضاعف كبغداد أي سورٌ داخلي وسور خارجي ، بينهما فصيل (٢) وحول السور الخارجي حفر خندق . يقول شمس الدين (٣) المقدسي : « ... بحصن عريض يسير على متنه فارسان .. » لقد قدّر العالم الاثري هرتزفلد عرض كل من السورين والفصيل والخندق بالخطوات ولقد ذكرها الاستاذ كرزويل في كتابه نقلا عنه ، إلا أنه استطاع أن يحصل على المقاييس (٤) الصحيحة بعد أن اتصل بالسيد سيريغ مدير مصلحة الآثار الافرنسي في سوريا في سنة ١٩٣٣ بعد زيارته الثانية للرقة ، فكلف المدير المهندس السيد نودي Naudy الذي قام بعملية سبر وأعطى النتائج (٥) التالية : سمك السور الرئيسي ٥٫٨٠ م ، عرض الفصيل ٢٠٫٨٠ م ، سمك السور الخارجي ٤٫٥٠ م ، أما الخندق فإن عرضه في الأعلى ١٥٫٩٠ م وفي الاسفل ٩٫٥٠ م . وقد تبين من سبر أسفل السور أن الاساس من الحجر الكلسي (ويظن الاستاذ كرزويل من حجر الجص الطبيعي الموجود في المنطقة بوفرة) ، وتقدر أبعاد الحجر الواحد بـ ٨٥ سم طولاً و ٥٥ عرضا و ٦٥ سم ارتفاعاً لم يستطع السيد نودي Naudy أن يتأكد من أن هذا الاساس الحجري موجود تحت السور كله او أنه فقط يحمي واجهة الاساس ، إلا أنه يرجح الفَرَض الثاني (أي أنه موجود في الطرف الخارجي فقط) . ويقول إن الاساس الحجري مرتكز على الأرض الحرة وهو مرتبط معها بمؤونة شبيهة بالأسمنت .

جُعل للمدينة بابان (٦) أحدهما في الزاوية الجنوبية الشرقية والآخر في الزاوية الجنوبية الغربية

---

(١) كرزويل ج II ص ٣٩ نقلاً عن ديونيسوس لتل محرى يقول : جلب المنصور البنائين من جميع بلاد الرافدين .

(٢) ياقوت ج II ص ٧٣٤ يستعمل ياقوت هذه الكلمة بمعنى فاصل مع أن معناها اللغوي حائط قصير دون الحصن (القاموس المحيط للفيروزبادي) .

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ١٤١ طبعة بريل – ليدن ١٩٠٦ .

(٤) المخابرات وتقرير المهندس السيد نودي موجودة في أضابير مديرية الآثار العامة .

(٥) كرزويل ج II ص ٤٠ – ٤١ .

(٦) – أ – يذكر ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك (طبعة الأكاديمية الايطالية سنة ١٨٢٢) ص ١٢ عندما يصف مدينة المهدية في تونس يقول : « ولها بابان ليس لها فيما رأيته من الأرض شبه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الرافقة وعلى مثالها عملا ... »
– ب – أحسن التقاسيم للمقدسي ص ١٤١ .

ولا يزال الباب الشرقي ماثلاً ويسمى (باب بغداد [١]) ، أما الباب الغربي فقد تهدم وقد ذكر ياقوت[٢] اسم (باب الجنان) ولعل هذا الاسم للباب الغربي ، وكلاهما بنيا من الآجر ، وجُعل إلى جانب كل منهما برج مستدير نصف قطره (٧٫٨٠ م) تقريباً ، لا يزال البرج الشرقي موجوداً بارتفاع ٧ــ٨ م ، أما البرج الغربي فقد رآه الاستاذ هرتزفلد عندما زار الرقة سنة ١٩٠٨ولم يعُد له وجود الآن.

يقدر الاستاذ كرزويل أبعاد الرافقة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال الى الجنوب بنحو ١٥٠٠ م ويعطي الاستاذ هرتزفلد [٣] مساحة لها (١٫٩٢ كم ٢) .

أما داخل السور فإن الأنقاض فيها متراكمة وتشكل تلالاً صغيرة وأرضاً متموجة . ولم يبق من آثار الأبنية القديمة إلا واجهة الجامع والمأذنة وآثار قصر [٣] لا يوجد فيه كتابات تدل عليه . وقد ورد ذكر الجامع في الكتب القديمة : ذكره المقدسي [٤] وقال عنه : « . . إنه جامع عجيب . . . » وفي موضع آخر عين" مكانه في سوق الصاغة . وذكر الاصطخري [٥] الجامع فقال : « ... وفي كل واحدة منها (يعني الرقة والرافقة) مسجد جامع » . وقد ذكرنا سابقاً المسجد الذي بناه سعيد بن عامر الوالي الثاني للرقة سنة ٢٠ هـ .

يفهم من كلام ياقوت أن الرقة وجميع الضواحي المحيطة تشرب من نهر البليخ بواسطة قنوات ، لكن الاستاذ [٦] هونيغمان يقول ــ اعتماداً على ميكائيل السوري ــ : « إن قناتين منفصلتين من منطقة سَروج تروي الرافقة من الفرات . » ونقول ربما كانت القنوات تستمد مياهها من البليخ ومن الفرات معاً ، خاصة وأن أكثر الجغرافيين العرب يتحدثون عن وفرة مياهها وكثرة اشجارها .

وفي الفضاء الكائن بين الرقة والرافقة نشأت المزارع وأنشىء فيه السوق [٧] الجديد في عهد

---

(١) لم ترد هذه التسمية في كتب الأقدمين الذين اعتمدنا على أخبارهم .
(٢) ياقوت ج I ص ٤٤٣ ؛ ج II ص ١٢٥ .
(٣) الموسوعة الاسلامية III ١١٨٧ .
(٤) أحسن التقاسيم ص ١٤١ .
(٥) كتاب الاقاليم (طبعة Gothae سنة ١٨٣٩) ص ٤٢ .
(٦) الموسوعة الاسلامية III ١١٨٧ اعتماداً على : Michael, Syr. III, 10 .
(٧) البلاذري ص ١٨٤ ؛ ياقوت II ٧٣٤

والي الجزيرة علي بن سليمان بن علي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، ونقل سوق الرقة الأعظم المعروف بسوق هشام العتيق اليه .

أما الربض خارج الرافقة ، فقد اختلف القدماء على مدلوله : إن [١] ياقوت يقول عن الرافقة : « ... ولها ربض بينها وبين الرقة وبه أسواقها ... » وبعد هذا القول يتكلم عن إنشاء السوق الجديد في الفضاء ـ كما ذكرنا في الفقرة السابقة ـ أي إن الاسواق الموجودة في الربض غير السوق الجديد . ويقول المقدسي [٢] : « ... والرافقة هي ربض الرقة ... » ويقول أبو الفداء [٣] نقلاً عن المشترك : « ... الرقة مدينة على الفرات ، وكان يقال لربضها الرافقة ... » إذا راجعنا بمعنى كلمة ربض وجدنا أنها (مأوى الغنم والأرض التي تجاوره) ويوسع المنجد المعنى باطلاقه على الضاحية أو المنشآت الإضافية الموجودة قريباً من السور . نميل أن يكون الربض الموجود بين الرقة والرافقة كان بالأصل مأوى الغنم وبجواره سوق الغنم ثم اتّسع بطبيعة الأمر ، لكن لم ينشأ فيه السوق الجديد حسب مافهم الاستاذ هونيغمان من البلاذري وياقوت مع أن كليهما قالا إن إنشاء السوق الجديد كان في الفضاء الواقع بين المدينتين أما قول المقدسي وأبي الفداء عن الربض فهو بمعنى الضاحية ، ومن الطبيعي أن الرافقة بعد اتساع المدينة الوسطى أصبحت كضاحية لها .

توسّع الرافقة واتصال الرقتين والضواحي :

إن إنشاء الرافقة قريباً من الرقة أثر على أهميتها وحيويتها حتى أن أهل الرقة لم يفتهم هذا الأمر عندما علموا أن المنصور قد صمم على بنائها فقد اعترضوا [٤] عليه وقالوا : « تعطل علينا أسواقنا وتذهب بمعاشنا وتضيّق منازلنا ... » حتى همّ المنصور بمحاربتهم لو أنهم تشبثوا برأيهم . لقد عمرت الرافقة واستصلحت الأراضي حولها فأصبحت حدائق [٥] وبساتين تمر منها جداول

(١) ياقوت II ٧٣٤ .
(٢) أحسن التقاسيم ص ١٤١ .
(٣) تقويم البلدان ص ٢٨٦ .
(٤) الطبري ج III ص ٣٧٢ سنة ١٥٤ هـ .
(٥) الاصطخري ص ٤٢ .

المياه فترويها وأصبحت جنة تستثير وجدان الشعراء[١] وتحرك خيال الأدباء ، وبدأت الرافقة تمور بالحياة حتى ضاقت أسوارها عن استيعاب منشآتها ، فبدأ الخليفة الرشيد فعمر قصراً خارج السور أسماه قصر [٢] السلام واخذ الامراء والوزراء والكبراء يبنون قصورهم شرقي المدينة وشماليها حتى اتصلت الرافقة بالرقة والضواحي المجاورة . فورثت الرافقة كل مظاهر الحياة من الرقة حتى اسمها ولم يعد اسم الرافقة مستعملاً في القرن الرابع الهجري وما بعده إلا أن تعتبر الرافقة ملحقاً للمدينة التي امتدت خارج السور على نحو ماذكر المقدسي .

يعتبر العصر الذهبي للرقة ما بين الربع الأخير من القرن الثاني الهجري حتى أواسط القرن الثالث الهجري وفي هذه الفترة أصبحت تستهوي قلوب الأمراء والوزراء فكانوا يتملكون الأراضي ويبنون القصور ويعيشون فيها عيش الرفاه والبذخ ويتمتعون بالمسرات واللذائذ . يذكر المسعودي [٣] خبر السباق في عهد الرشيد وما ينشأ عنه من السلوى ، وخبر الوليمة التي أولمها الأمير العباسي إبراهيم بن المهدي في قصره للرشيد وكيف تبين للرشيد أن صحناً قدّم على المائدة كان مليئاً بألسنة السمك فقط . يذكر الطبري [٤] كيف اتخذ الرشيد الرقة وطناً له ، ويذكر أيضاً بعد أن قتل [٥] البرامكة وحبس بعضهم كيف وجه من ليلته رجاء الخادم إلى الرقة في قبض أموالهم وما كان لهم ، وأخذ كل ماكان من رقيقهم ومواليهم وحشمهم ... ويذكر أيضاً بعد أن انتهى الرشيد من محاربة الروم في آسيا الصغرى كيف ولىّ حميد بن معيوف سواحل [٦] بحر الشام الى مصر . فبلغ حميد قبرس (كذا) فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً فأقدمهم الرافقة ، فتولى بيعهم أبو البختريّ القاضي فبلغ أسقف قبرس ألفي دينار .

ويذكر الطبري [٧] أيضاً كيف وجّه الواثق الى بغداد والرقة في شرى من يبـاع من

---

(١) الشاعر ربيعة الرقي يصف الرقة بأبيات ذكرها (ياقوت ج II ص ٨٠٢) وكذلك الصنوبري له أبيات جميلة فيها (ياقوت ج IV ص ٩٩٤) .

(٢) ياقوت ج IV ص ١١٢ والبلاذري يقول ص ١٨٤ ... ثم إن الرشيد بنى قصورها ..

(٣) المسعودي ج VI ص ٣٤٨ و ٣٤٩ طبعة باريس ١٨٧٧ (ذكر الخبر الاستاذ فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب ج ٢ ص ٤٠٢) .

(٤) الطبري ج III ص ٦٤٥ سنة ١٨٠ ه .

(٥) » » » ٦٧٩ سنة ١٨٧ ه .

(٦) الطبري ج III ص ٧٠٩ سنة ١٩٠ ه .

(٧) الطبري ج III ص ١٣٥٣ .

الرقيق من مماليك ... كل هذا يدلنا على مدى اتساع الرقة وغنى أسواقها وخاصة أسواق الرقيق ؛ وانا لندهش حقاً من أن تستوعب هذه الأسواق ستة عشر ألفاً من الرقيق يأتون دفعة واحدة فيباعون فيها . ومن هنا نستطيع أن نقدر أهمية هذه المدينة في ذلك العصر .

لم تكن الرقة الكبرى سوقاً هامة فحسب بل يصفها المقدسي [١] وصفاً جامعاً فيقول : « ... غير أنها طيبة نزهة ، قديمة الخُطة ، حسنة الاسواق ، كثيرة القرى والبساتين والخيرات ومعدن الصابون الجيد والزيتون ، ولها جامع عجيب وحمامات طيبة ، قد ظللت أسواقها ، وبربقت [٢] (كذا) قصورها ، وانتشر في الإقليمين ذكرها ، فالشام على تخمها ، والفرات إلى جنبها ، والعلم كثير بها . الا أن الأعراب بها محيطة ، والطرق اليها صعبة . » ويذكر المقدسي [٣] في مكان آخر شهرة الرقة بتصدير الصابون والزيت والأقلام . ويصفها ياقوت : « ... مدينة كبيرة كثيرة الخير ... » نستنتج من هذه الأوصاف أنها مدينة عامرة نزهة مستطابة العيش فيها لهو وفيها حركة تجارية وصناعية وفيها علم . يذكر الاستاذ فيليب [٤] حتي أنه ظهر في الرقة بين سنتي ٨٧٧ م = ٢٦٤ هـ و ٩١٨ م = ٣٠٦ هـ أبو عبد الله محمد بن جابر البتّاني وأصله من صابئة حرّان وهو أعظم فلكي في قومه . أجرى أرصاده ودراساته في الرقة . لقد أصلح كثيراً مما خلّفه بطليموس من الآثار العلمية ، وضبط حساب الافلاك التي يدور فيها القمر وبعض النجوم السيارة . واذا أردنا أن نستقصي هذه الناحية فإن المجال واسع جداً وحسبنا أن نراجع المخطوط (تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله ﷺ) المودوع في المكتبة الظاهرية في دمشق لنعلم عدد المحدثين وعلماء الدين الذين ظهروا في الرقة أو اقاموا فيها .

في هذه الفترة التي نعدّها العصر الذهبي للرقة جرى ثلاثة حوادث مؤسفة في الرقة ، أولها ثورة عمرو ونصر بن شبث على المأمون سنة ١٩٧ هـ = ٨١٢ م احترق [٥] من جرائها الربض ودير العواميد الذي يظن أنه المسجد المعلق على عمود الذي ذكره المقدسي . ويبدو أن الرقة السوداء

(١) احسن التقاسيم ص ١٤١ .
(٢) لم نجد في المعاجم الكبيرة كلمة (بربق) ونعتقد أن الكلمة في الأصل (برقت) بمعنى تزينت .
(٣) أحسن التقاسيم ص ١٤٥ .
(٤) تاريخ العرب لفيليب حتي ج ٢ ص ٤٥٩ نقلاً عن الفهرست لابن النديم ص ٢٧٩ .
(٥) الموسوعة الاسلامية نقلاً عن Michael, Syr. III, 26 .

والرقة المحترقة وهذا الربض المحترق كلها واحد . والحادث الثاني جرى أيضاً في عهد المأمون لقد نزل عرب الشام في الرقة منذ سنة ١٩٦ [١] ه واجتمع الأبناء وأهل خراسان بالرقة وصارت تحدث بين الفريقين (أي الفرس وعرب الشام) مشاكل وحروب أثرت على هدوء الرقة واستقرارها .حتى اضطر المأمون في سنة ٢٠١ ه = ٨١٦ م أن يأمر قائده طاهر بن الحسين ليبني [٢] جداراً بين الرقة والرافقة لئلا يقتتل الفريقان . أما الحادث [٣] الثالث فقد زلزلت الأرض سنة ٢٤٥ ه وتأثرت بالس والرقة وحرّان ورأس عين وحمص ودمشق والرها وطرطوس والمصيصة وأدنة وسواحل الشام ورجفت اللاذقية ، فما بقي منها منزل ولا أفلت من أهلها إلا اليسير ، وذهبت جبلة بأهلها . . .

وهنا لا بد لنا من أن نذكر قيمة الرقة الحربية : هي في موضع قريب من التخوم الشمالية إلا أنها ليست معرضة للهجوم المفاجيء ، لذا كانت مركز تجميع الجيوش وخاصة الصائفة [٤] لذا كان يقيم بها الرشيد للاشراف على تنظيم هذه الجيوش وستظل الرقة ذات أهمية حربيـة في العهود التالية لتجميع الجيوش من جهة ولتموينها من جهة أخرى . لذا لا نستغرب أن تكون قصورها التي بنيت خارج السور محاطة بأسوار ذات ابراج . [جميع القصور المكتشفة في الرقة محصنة بأسوار ذات ابراج]

بلغت الرقة في هذه الفترة الأوج في الاتساع فقد ملأت السهل المحصور بين الفرات ومصب البليخ وهي التي يسميها ياقوت [٥] الرقة الوسطى التي وصلت ما بين الضواحي وإن نظرة إلى المصور [٦] ، الملتقط من الجو لمنطقة الرقة يدلنا على مدى اتساع المدينة القديمة التي ما زالت كامنة تحت التراب . إن السيد نسيب صليبي المساعد الفني الممتاز في مديرية الآثار العامة الذي يتولى أعمال الحفر والتنقيب في المنطقة منذ عام ١٩٥٠ يقدر مساحة الرقة بـ ٥٠ [٧] كم٢ وهو تقدير قريب من الحقيقة .

---

(١) الطبري III ١٤٤ ويسمي عرب الشام (الزواقيل)

(٢) الموسوعة الاسلامية نقلاً عن Michael, Syr. III, 26 .

(٣) الطبري ج III ص ١٤٤٠ .

(٤) الطبري ج III ص ٧٠٩ ؛ حتّي ج ٢ ص ٣٧٣ .

(٥) ياقوت II ٨٠٢ ؛ الاصطخري ص ٤٢ يقول « والمدينتان متلاصقتان » .

(٦) في مجلة Ars Islamica XIII - XIV ص ٣١ بحث للاستاذ سوفاجه نشر فيه مصوراً جوياً وقد نشرت مجلة الحوليات الأثرية هذا المصور في المجلد I - ١ ص ١١١ عام ١٩٥١ .

(٧) انظر مقاله في الحوليات الأثرية ج VI ص ٢٥ عام ١٩٥٦ .

وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر نحب أن نستأنس بما ذكره المقدسي عن أهمية الرقة كمركز إداري يتبعه مدن وقرى يقول[١] : « وأما ديار مضر فقصبتها الرقة ومن مدنها المحترقة ، الرافقة خانوقة ، الحريش ، تل محرى ، باجروان ، حصن مسلمة ، ترعوز ، حران ، الرها ، والناحية سَروج ، كفر زاب ، كفر سيرين » .

الرقة من أواخر القرن الثالث حتى السابع الهجريين :

لقد أخذت الرقة تفقد منزلتها منذ بنيت مدينة (سر من رأى = سامرا) وقد أخذ الخلفاء يعنون ببناء القصور فيها وأقاموا بها . لقد اختل نظام الأمن في البلاد وضعفت سلطة الخليفة وكثرت الحروب بين الطامعين وانفصلت الدويلات واحدة بعد أخرى واستبد الترك أولاً بأمور الدولة وعانى من غلظتهم الشعب كثيراً ثم انتقلت السلطة الفعلية إلى البويهيين فلم يكونوا أفضل من الأتراك ثم انتقلت مرة أخرى إلى أيدي السلاجقة ، وكان هؤلاء أفضل ممن سبقهم إلا أن الحروب المتصلة أضعفت الكيان العربي الاسلامي . ثم جاء الصليبيون فأحدثوا اضطراباً عظيماً في الشرق العربي وتلاهم التتر الذين جروا الخراب على أكثر المدن ومنها الرقة .

لقد خربت الرقة القديمة منذ القرن الرابع الهجري ولكن بقيت الرقة الحديثة وأمست الرافقة ضاحية لها كما يذكر المقدسي . دخلت الرقة تحت نفوذ الطولونيين[٢] وكان لؤلؤ صاحب ابن طولون مقيماً في الرقة في جيش عظيم من الفراغنة والأتراك والروم والبربر والسودان وغيرهم . ولقد سكن المعتضد[٣] الرقة بعد عودته من الشام سنة ٢٨٦ هـ . وكذلك كان المكتفي[٤] متخذاً الرقة له مقاماً ثم نزل الخليفة المتقي[٥] في الرقة وأقام بها ردحاً عندما اختلف مع توزون وكاتب الاخشيد محمد بن طغج صاحب مصر ، فسار إلى الرقة وحمل إليه مالاً كثيراً وأهدى

---

(١) أحسن التقاسيم ١٣٧ يفصل في موضع آخر فيذكر جميع النواحي والقرى التابعة ص ٥٤ . والبلاد عند المقدسي على درجات : فأكبرها شأناً ومركزاً وسلطاناً يدعوها مصراً ثم يليها القصبة ، فالمدينة ، فالقرية ، ويسمي القرية أحياناً ناحية .

(٢) الطبري ج III ٢٠٨٠ .

(٣) « « « ٢٢٠٠ .

(٤) « « « ٢٢٣٦ – ٢٢٤٤ .

(٥) المسعودي (مروج) ج ٨ ص ٣٤٨ .

إليه غلماناً وأثاثاً وضم إليه قائداً من قواده وجمّل أمره وزاد في حاله وبرّ جميع من معه . ويعني هذا أن الرقة كانت تابعة لحكومة مصر في عهد الاخشيديين . ثم حكمها السلاجقة فالأتابكة فالأيوبيون .

لقد كانت الرقة بمنجاة عن الحروب التي اشتعلت بين المسلمين والصليبيين لأنها واقعة في الضفة الشرقية للفرات . ولقد تحسن حال الرقة من جديد في القرن السادس لأنها أصبحت مركز تموين للجيوش الغازية والمدافعة . يحدثنا ابن الاثير[١] كيف كانت الرقة تلعب دوراً تموينياً عسكرياً في عهد الاتابك عماد الدين[٢] زنكي فبعد أن تملك حمص سنة ٥٣٢ هـ وبعض أعمال دمشق عاد إلى السلمية ومنها إلى الفرات فعبر إلى الرقة وأقام جريدة ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة . ظلت الرقة تلعب الدور نفسه في عهد الاتابك نور الدين[٣] محمود ثم في عهد ابنه الملك الصالح اسماعيل أتابك حلب .

لقد كان الاتابكة مصلحين من الناحية العمرانية في جميع البلاد التي حكموها وقد نالت الرقة شيئاً من هذا الاصلاح خلدته لوحة مكتوبة[٤] وجدت في جامع الرقة من سنة ٥٦١ هـ في عهد نور الدين .

لقد كثرت مؤامرات الاتابكة في الشمال بعد موت نور الدين محمود وكان الملك الصالح ضعيفاً واشتد الخطر الصليبي فرأى صلاح الدين الايوبي أن يأخذ الامر بالحزم فاستولى على دمشق وحمص وحماة وضواحي حلب وترك حلب للملك الصالح على أن يكون له مؤازراً واستولى على الرقة سنة ٥٧٨ هـ[٥] وحران والرها ونصيبين وميافارقين وجميع مدن الجزيرة وحاصر

---

(١) الكامل لابن الأثير - طبعة مصر ج ١١ ص ٢٢ .

(٢) دفن عماد الدين زنكي في الرقة بعد مقتله بحصار قلعة جعبر سنة ٥٤١ هـ (ابن الأثير ج ١١ ص ٤٢)

(٣) احتل نور الدين الرقة سنة ٥٥٤ هـ ثم ترك الحكم فيها لأخيه مودود فحكمها من ٥٦٢ — ٥٦٦ هـ (الموسوعة الاسلامية III ١١٨٧) .

(٤) نشرت في Répertoire chronologique d'epigraphie arabe T. 9 No 3269 .

(٥) كتاب الروضتين لشهاب الدين المقدسي ج ٢ ص ٢٩ مطبعة وادي النيل ١٢٨٧ هـ .
سيرة صلاح الدين لابن شداد ص ٤٦ القاهرة (بدون تاريخ)

الموصل إلا أنه تراجع عنها ثم حاصرها مرة أخرى واصطلح مع أتابكها عز الدين سنة ٥٨١ هـ[1] وعلى هذا النحو استطاع صلاح الدين أن يفرض نفوذه على سوريا ومصر ، وتوحدت جهود الزعماء المحليين لمحاربة [2] الصليبيين .

هدأت الحروب الاهلية في الربع الأخير من القرن السادس ، فأخذت البلاد تنتعش وخاصة الرقة التي تتمتع بموقع جيد وموارد طيبة وأخذت تؤدي دورها في إنتاج المصنوعات الراقية كما كانت في القرون السابقة : لقد انتجت الرقة أجمل الطرف من الحلي ، والزجاج المموّه بالذهب والمحلى بالميناء الملونة والفخار المزين بزخارف بارزة دقيقة ، والخزف المطلي بالميناء بأنواعه الشهيرة : الخزف المزين بالزخارف السوداء تحت الميناء الزنجارية وهو المعروف في العالم باسم (خزف الرقة) ، الخزف ذي البريق المعدني ، الخزف الرقيق المعروف باللقبي وهو ملون بلون واحد أزرق فيروزي أو زبدي مع شيء من الزخارف البارزة ، الخزف المتعدد الألوان ...

هذه المدينة تعتبر بحق من أهم مراكز الإنتاج في ظل الحضارة العربية الإسلامية وهي تعدّ مع سامرّا ودمشق والقاهرة وحلب وبغداد والموصل أهم المناطق الأثرية العربية الإسلامية .

خواب الرقة :

كان هجوم التتر على بغداد سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م وبالاً على العالم الاسلامي ، واضطربت أحوال الجزيرة اضطراباً عظيماً لقسوة الموغول في معاملة السكان . لقد كانت الرقة بموقعها ومعاملاتها متصلة ببغداد ،وأهميتها تأتت من هذا الاتصال ؛ فلما خربت بغداد جفت موارد الحياة بالنسبة إلى الرقة . ومازالت الرقة تذبل حتى أصبحت خراباً يباباً في القرن الثامن الهجري . وقد ذكر أبو الفداء عندما كتب كتابه الجغرافي تقويم البلدان فقال : « والرقة في زماننا مدينة خراب ليس بها أنيس .. » وكانت هذه الكتابة في سنة ٧٢١ هـ = ١٣٢١ م .

لابدّ أن أيدي الأعراب عاثت بالرقة ومنشآتها الخربة واتلفت كثيراً من محتوياتها ونهبت مايمكن استعماله في ذلك العصر ، ثم تقوضت ابنيتها لأنها من الآجر والطوب ، ونامت المدينة نوماً عميقاً تحت الركام حتى القرون الأخيرة . بدأت القبائل العربية (وهم العفادلة) تستقر في جوار

---

(١) سيرة صلاح الدين لابن شداد ص ٥٦ القاهرة .

(٢) » » » ص ٩٨ – ١٦١

منطقة الرقة . أما الرقة نفسها فإنها ظلت خالية حتى نقلت الدولة العثمانية في سنة ١٨٦٥ م القبائل العربية التي كانت قاطنة في أورفه وهم الذين كان يطلق عليها باللغة التركية (القول = ومعناها القبائل الموجودة في الخطوط الأمامية) وهم الشعيب والحسون والموالى . . وأسكنتهم الرقة بالرغم من معاكسة العفادلة . وقطن الرقة أيضاً بعض القبائل العربية النازحة من الميادين والعشارة (قرب الميادين) ، ومن قرية الجرن (التابعة للموصل) وهم العجيلي ، ومن الجزيرة العربية وهم طي؛ ثم هاجر إليها الشركس الذين فرّوا من بلادهم على أثر الحروب التركية الروسية سنة ١٨٧٨ م ، فأخذ السكان الجدد يشيدون منازلهم من كميات الآجر واللبن التي سحبوها من سور الرقة وأبراجه . أخذت تنمو الرقة على حساب الخرائب القديمة ، ونستطيع أن نقول أن جميع دورها قبل عشرين عاماً كانت موادها الأولية من الخرائب . حتى أن السور الجنوبي للرقة والبرج الغربي والباب الغربي ... كل ذلك قد زال تماماً ، وتوضعت الدور الهزيلة في مكانه .

لقد بدأ الاجانب يهتمون بالآثار الإسلامية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وكانت الاسعار التي تدفع بهذه الآثار فاحشة جداً ، لذا أقبل أهل الرقة على نبش الأرض كيف ماالتفق ، وأخرجوا قطعاً هامة جداً ، ولكنهم أتلفوا مقابلها قطعاً كثيرة ، وقد وجدت هذه القطع طريقها إلى أوربا وامريكا ، ولم يبق في بلادنا منها إلا النذر اليسير .

أرادت فرنسا من الناحية الرسمية أن تحمي آثار الرقة في عهد الانتداب ، وقد بذلت شيئاً من الجهود في ترميم باب بغداد وواجهة المسجد وتقوية المأذنة إلا أنها لم تكن جدية تماماً في مكافحة التنقيب السري ، بل العكس أحياناً يقع : إذ كان بعض المسؤولين يشترون القطع التي تظهر مع الأهلين بأسعار طيبة مما كان يشجع الأهلين على الاستمرار في الحفر .

عنيت الجمهورية السورية بعد الاستقلال بالمؤسسة الأثرية فأنشأت مديرية الآثار العامة ووسعت ملاكها وجعلت لها فروعاً : منها فرع أعمال الحفر والدراسات . لقد بدأت أول أعمال الحفر في منطقة الرقة عام ١٩٤٤ - ١٩٤٥ وقد بدأت اعتماداً على خبرة الاستاذ دونان باكتشاف قصر هام أطلق عليه فيما بعد القصر ــ أ ــ . ثم ارسلت بعثة يتولى شؤونها المساعد الفني الممتاز السيد نسيب صليبي فقام بحفائر دورية منذ سنة ١٩٥٠ حتى الآن ، اكتشف على أثرها القصور : ب ، حـ ، د في منطقة الرقة الوسطى حسبما يسميها ياقوت والتي يسميها الاستاذ دونان مدينة الرشيد .

لقد كانت القطع الأثرية التي حصلت عليها مديرية الآثار العامة من هذه الحفائر قليلة ، والقطعة الكاملة تعتبر نادرة ، لأن الأرض ــ كما ذكرنا ــ منبوشة منذ مدة طويلة ، إلا أن

هذه القطع على قلتها وسوء وضعها مفيدة جداً من الناحية العلمية ، فقد أعطتنا نماذج من الزجاج والفخار والخزف المطلي والبرونز والنحاس . . . تعود إلى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وهذه القطع تعتبر من أندر القطع الأثرية في العالم ؛ هذا بالاضافة إلى الأطُر الجصّية المزخرفة التي تحيط بالأبواب والنوافذ في القصور المكتشفة : فهي بعد إصلاحها وتقويتها تعتبر من أنفس أجزاء الأبنية الموجودة في العالم .

لم تقف عناية المديرية العامة على التقدم في أعمال الحفر والتنقيب وإنما وسعت المتاحف ومنها متحف دمشق فأحدثت فيه فرع الآثار العربية الإسلامية . وقد جُعل في هذا الفرع قاعة خاصة للرقة تضم القطع الأثرية المكتشفة من القصرين : ب و ح ، والأطر واللوحات الجدرانية التزيينية وأجزاء الزخارف الجصية وبعض المقتنيات التي اكتشفت قديماً في الرقة بصورة مؤكدة . وستنمو هذه القاعة في المستقبل [انظر الألواح التابعة لهذا المقال] .

لقد عثر بعض المواطنين في الرقة على كنز[1] من النقود النحاسية العربية والبزنطية في سبع جرار داخل سور الرافقة فأسلموه إلى محافظة المتحف الوطني ، وكافأتهم المديرية العامة على عملهم . وقد عرض هذا الكنز في معرض المكتشفات الأثرية لعامي ١٩٥٤ و١٩٥٥ مع بعض القطع الأثرية التي وجدت في القصر المكتشف ــ د ــ وبعض القطع الخزفية والفخارية المكتشفة في الرقة .

إن منطقة الرقة بحاجة إلى حملة واسعة من أعمال الحفر والتنقيب والكشف والترميم ، وهذه الأعمال الواسعة تتطلب أموالاً باهظة ؛ لكن الفوائد العلمية والمادية ستكون بالغة الأهمية . نرجو أن تتحقق هذه الأمنية الغالية في القريب العاجل .

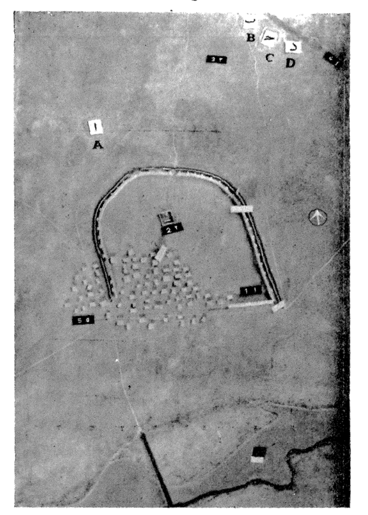
(١) لقد درس جزء هام من الكنز النحاسي وسننشر هذه الدراسة في عدد آخر إن شاء الله .

اللوح - ١ -



مصور الجزيرة كما وضعه الجغرافي الاصطخري في كتاب الاقاليم طبعة Dr J. H. Holler, Gothae, MOCCCXXXIX ويلاحظ فيه أن الجنوب يتجه الى الاعلى وأن مدينتي الرقة والرافقة متلاصقتان

اللوح – ٢ –



مخطط مجسم لمنطقة الرقة هو معروض في قاعة الرقة من فرع الآثار العربية الاسلامية في المتحف الوطني بدمشق ويبدو فيه النقاط الآتية :

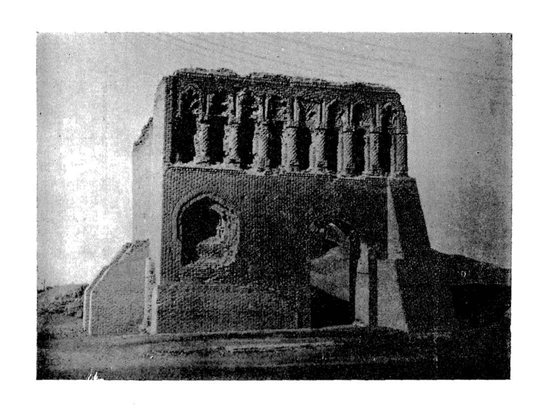
١ – مدينة الرافقة المصورة ضمن السور ٢ – مسجد الرافقة

٣ - توسع الرافقة خارج السور وهي التي أطلق عليها / الرقة الوسطى / وهي منطقة القصور التي تجري فيها مديرية الآثار العامة أعمال الحفر والتنقيب

٤ – آثار القناة التي تروي الرقة . ٥ – البلدة الحالية

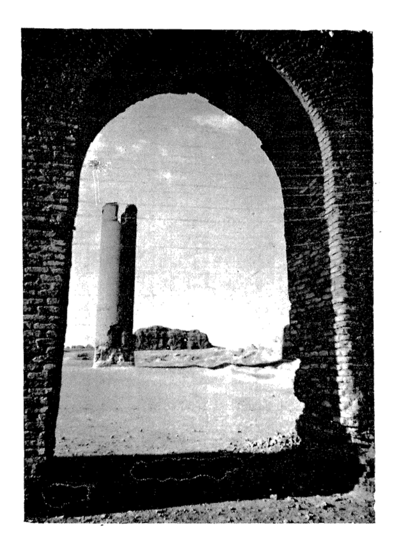
ا ، ب ، حـ ، د : القصور المكتشفة من قبل مديرية الآثار العامة .

اللوح - ٣ -



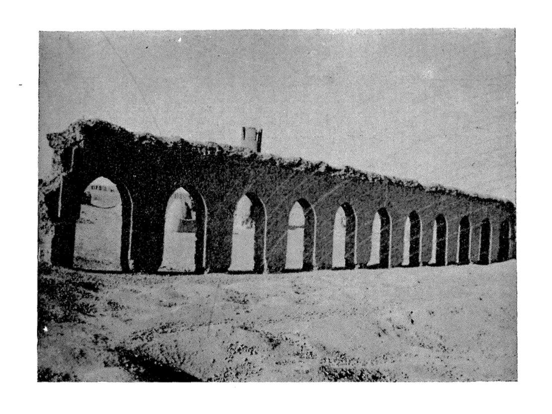
باب بغداد كما يبدو حاليا في خرائب الرافقة

اللوح — ٤ —



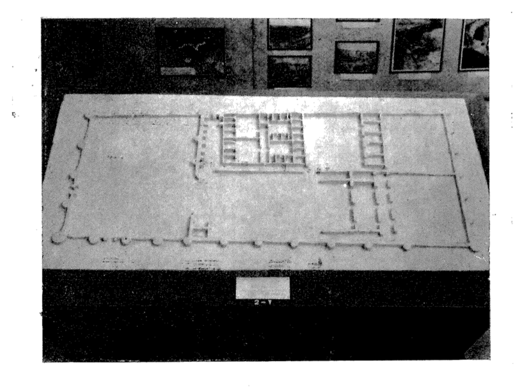
مأذنة جامع الرافقة تبدو من أحد أبواب واجهة المسجد الآجرية

اللوح — ٥ -



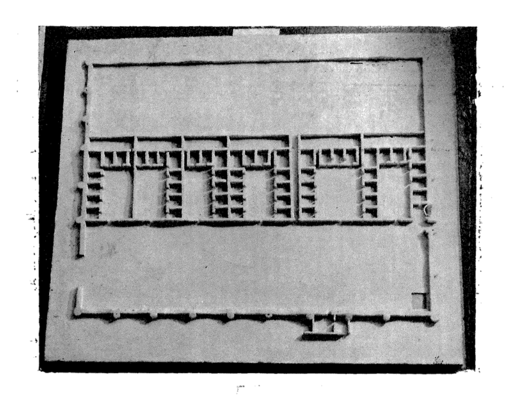
واجهة مسجد الرافقة وهي مبنية من الآجر ولازالت ماثلة للعيان

اللوح - ٦ -



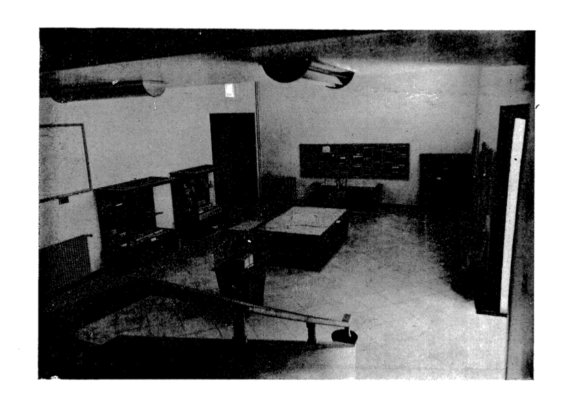
المخطط المجسم للقصر - ب - كما هو معروض في قاعة الرقة من فرع الآثار العربية الاسلامية في المتحف الوطني بدمشق

اللوح – ٧ –



المخطط المجسم للقصر – ه – كما هو معروض في قاعة الرقة من فرع الآثار العربية الاسلامية في المتحف الوطني بدمشق

اللوح - ٨ -



قاعة الرقة ــ في فرع الآثار العربية الاسلامية من **المتحف الوطني بدمشق**

اللوح – ٩ –



تاج عمود من حجر الجص الطبيعي ، يظن أنه من العهد البزنطي وقد عمد البنّاء العربي
إلى مسح الذؤابة العليا للصليب ليستعمله في العمران في العهد العربي

